كتاب (التبيـان) للطوسـي

الدكتور محمد حسين آل ياسين
جامعة بغداد ـ كلية الآداب

خطة البحـث:

بدأت بترجمة مختصرة لحياة الشيخ الطوسي واضع هذا الكتاب ليتسنى لنا فهم آرائه في ضوء حياته الفكرية والعلمية، وتتضح لنا معالم طريق دراسة نتاجه أكثر مما لو كان مجهول النشأة والحياة، فأشرت إلى حياته ببغداد وحياته بعد الهجرة إلى النجف ووفاته. ثم عرجت على الكتاب أذكر طبعاته وتلخيصاته وتقاريضه ولكن بإيجاز واختصـار قدر المستطاع. ثم انتهيت إلى دراسة منهجه في كتابة هذا التفسير، فبدأت بالمقدمة واقتطفت جزءاً من كلامه في سبب تأليفه هذا الكتـاب. ثم استعراض سريع للفصلين اللذين تحويهما المقدمة، فدراسة لمنهجه العام في الكتاب وذكر أهم خطوط هذا المنهج وأوضح معالمه، فإذا بهذا التقرير عصارة كل ذاك.

المؤلِّف: الشـيخ الطوسـي

لا بد لنا قبل البدء بدراسة (كتاب) الشيخ الطوسي ومنهجه في تفسيره،وأسلوبه في بحثه أن نلم إلمامةً موجزة بحياته نفسها.

حياته في بغداد:

ولد الطوسي في مدينة (طوس) في إيران في شهر رمضان سنة ٣٨٥هـ وهاجر إلى العراق فوطىء بغداد سنة ٤٠٨هـ أي أنه كان ابن ثلاثة وعشرين عاماً، فلازم الشيخ المفيد - الذي كان إذ ذاك فقيه المسلمين ومرجعهم - ملازمة الظل ودرس عليه واستفاد منه كثيراً، وبعد وفاة الشيخ المفيد انتقلت تلك الزعامة الدينية الأجلّ تلاميذه وأعلمهم السيد المرتضى فقصد أبو جعفر الطوسي درسه وحلقته فعني به المرتضى وبالغ في توجيهه وتلقينه، واهتم به أكثر من سائر تلاميذه وبقي ملازماً له طيلة ثلاث وعشرين سنة، وبعد وفاة السيد الشريف المرتضى استقل الشيخ الطوسي بالإمامة والزعامة. وأصبحت داره في الكرخ مأوى الأئمة ومقصد الوفاد وبلغ عدد تلاميذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة ومن غيرهم عدد لا يحصى. وقد اعترف كل فرد من هؤلاء بعظمه ونبوغه، وكبر شخصيته وتقدمه على من سواه ،وبلغ الأمر من الاعتناء به والإكبار له أن جعل له الخليفة العباسي آنذاك - وهو عبد الله القائم بأمر الله - كرسي الكلام والإفادة، وقد كان لهذا الكرسي يومذاك عظمة وقدر كبيران، إذ لم يسمحوا به إلا لمن برز في علومه وتفوق على أقرانه ولم يكن في بغداد يومذاك من يفوقه قدراً أو يفضل عليه علمًا فكان هو المتعين لذلك الشرف.

في النجف:

وما أن استتب الأمر بالشيخ الطوسي في بغداد حتى دخلها (طغرل بك) أول ملوك السلاجقة، فثارت الفتن واضطربت الأوضاع وكثرت القلاقل وانتشرت الفوضى، فقد دخل السلاجقة بغداد ناقمين - حاقدين على البويهيين وحكمهم القائم فأحرقوا المكتبة التي أنشأها أبو نصر سابور وزير بهاء الدولة البويهي وكانت من أكبر المكتبات وأعظمها شأناً وأهمها كتباً، ثم عرّجوا على بيت الشيخ الطوسي فأحرقوا كتبه وأتلفوا دفاتره وحطموا كرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس.

كل هذه الأعمال والظروف اضطرت الطوسي للهجرة، فغادر بغداد متوجهاً إلى النجف فنزلها وجعل منها مركزاً للعلم وجامعة كبرى لتدريس الفقه، فأخذت تشد إليها الرحال وتعلق بها الآمال، وأصبحت مهبط رجال العلم ومهوى أفئدتهم، وكان الفضل في ذلك للشيخ الطوسي نفسه فقد بث في أعلام مدرسته الروح العلمية، وغرس في قلوبهم بذور المعارف الإلهية، فشمروا للعلم عن سواعدهم عاكفين على دروسهم غائصين على أسرار معارفهم، حتى تخرج منها في عهده وفي القرون التالية آلاف مؤلفة من أساطين الدين وأعاظم الفقهاء وكبار الفلاسفة ونوابغ المتكلمين، وكلهم يعترف بأن الفضل للمؤسس الأول الشيخ الطوسي ويفتخر بأنه خريج جامعته وتلميذ مدرسته وأن اليد الأولى التي بنت صرح النجف العلمي كانت يد الطوسي.

وفاتــه:

وقد بقي الشيخ الطوسي في النجف بعد هجرته إليها مدة اثنتي عشرة سنة مشغولاً بالتدريس والتأليف والهداية والإرشاد وكل ما تتطلبه الزعامة والمرجعية من شؤون حتى توفي ليلة الإثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة ٤٦٠هـ عن خمس وسبعين سنة من العمر. مخلفاً ذلك التراث الضخم المتمثل بتآليفه ومصنفاته وكتبه التي درستها الأجيال العلمية وما زالت تدرسها في كل مجالات العلم وفنونه، فمنها بالفقه ومنها بالأصول وقسم في التفسير وعلوم الحديث، وأهمها كتاب (التبيان في تفسير القرآن) وهو موضوع البحث. وقسم آخر بالفلسفة وعلم الكلام إلى آخر قائمة العلوم والمعارف الإسلامية.

دفن في داره التي تحولت بعده مسجداً في موضعها، وذلك حسب وصيته التي وصى بها قبل وفاته وأصبح هذا المسجد مزاراً يؤمه الناس ويقصده، كما أصبح مكاناً لانعقاد حلقات الدرس والتحصيل، يتعاقب عليه الأساتذة الكبار واحداً بعد واحد حتى وقت متأخر من السنين. ثم

اقتصر فيه على الصلاة. و(مسجد الطوسي) الآن من أشهر مساجد النجف، وخصوصاً بعد ترميمه وإصلاحه، وتأسيس مكتبة عامة فيه آخذة بالنمو السريع والازدهار[1].

الكتاب

١ ـ طبعاته:

طبع (التبيان في تفسير القرآن) طبعتين الأولى في مدينة (قم) في إيران بمجلدين كبيرين كل مجلد منهما يقع في تسعمائة صفحة تقريباً وذلك بين سنة ١٣٦٠ ـ ١٣٦٥، ورغم الجهود التي بذلت في تصحيحه ونشره فقد جاء حافلاً بالأغلاط المطبعية والإملائية ولذلك عمدت (مكتبة الأمين) في النجف إلى طبعه ثانية فجاء خالياً من الأخطاء التي وقعت في طبعته الأولى ومرتباً ترتيباً جديداً على شكل أجزاء صغيرة يجمع كل أربعة منها مجلد واحد كبير. وهي الطبعة التي بين أيدينا ندرس فيها منهج الطوسي في كتابة تفسيره.

٢ ـ تلخيصاته:

ولخص الكتاب تلخيصين الأول للشيخ حسين النوري، وكان أحد أعلام التفسير والحديث بلغ من إعجابه بهذا الكتاب أن لخصه وسماه (مختصر التبيان). واختصره أيضاً الفقيه المفسر أبو عبد الله محمد بن هارون وقد سماه بـ (مختصر التبيان) أيضاً.

٣ ـ تقاريضه:

وقد قرض الكتاب في العصور المختلفة تقاريض كثيرة بينت أهميته

---

(١) اعتمدنا في ترجمة الطوسي على عدد من كتب التراجم، منها: خطط الشام، جـ ٦. ومعجم البلدان، جـ ٤. والمنتظم، جـ ٨. والوفيات، جـ ٥.

وما يحويه من مادة غزيرة وعلم جم ولكننا نورد هنا تقريضين أولهما لإمام المفسرين الطبرسي في مقدمة كتابه (مجمع البيان في تفسير القرآن) فقال عن تفسير الطوسي: «إنه الكتاب الذي يقتبس منه ضياء الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، وقد تضمن من المعاني الأسرار البديعة، واحتضن من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا بتنسيقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضيء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره»[٢]. وثانيهما للسيد الجليل مهدي بحر العلوم في كتابه (الفوائد الرجالية) أثناء ترجمته للشيخ الطوسي ذاكراً طول باعه في كل العلوم والفنون فقال: «أما التفسير فله فيه كتاب التبيان الجامع لعلوم القرآن وهو كتاب جليل كبير عديم النظير في التفاسير، وشيخنا الطبرسي إمام التفسير في كتبه إليه يزدلف، ومن بحره يغترف، وفي صدر كتابه الكبير بذلك يعترف»[٣].

نلحظ من كل ما مر من تكرار طبع الكتاب ومن رغبة المفسرين في تلخيصه لتتسنى الإفادة منه على أوسع النطاق ومن إعجابهم به وذكرهم له في متون كتبهم، نلحظ من كل ذلك أهمية الكتاب العلمية وندرك منزلته بين كتب التفاسير خاصة وكتب العلوم الإسلامية عامة.

منهج البحث والكتابة

يبدأ الطوسي كتابه ـ كما هي العادة ـ بمقدمة يذكر في أولها سبب تأليفه هذا التفسير فيقول: «فإن الذي حملني على الشروع في عمل هذا الكتاب، إني لم أجد أحداً من أصحابنا ـ قديماً وحديثاً ـ من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن، ويشتمل على فنون معانيه»[٤]، ثم يقسم من كتب في التفسير أقساماً ثلاثة. فـ(بين مطيل في جميع معانيه،

(٢) مجمع البيان، جـ ١ ، (المقدمة).
(٣) الفوائد الرجالية، ترجمة الشيخ الطوسي.
(٤) التبيان، جـ ١، ص ١.

واستيعاب ما قيل فيه من فنونه كالطبري وغيره وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه ومعاني ألفاظه. وسلك الباقون المتوسطون في ذلك مسلك ما قويت فيه منتهم ، وتركوا ما لا معرفة لهم به)[٥]، ويضرب لذلك أمثلة فيقول: «فإن الزجاج والفراء ومن أشبههما من النحويين، أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالإعراب والتصريف. ومفضل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الألفاظ. والمتكلمين كأبي علي الجبائي وغيره صرفوا همتهم إلى ما يتعلق في المعاني الكلامية. . .»[٦]، إلى آخر ما يذكر من أمثلة التفاسير المقتصرة على ناحية واحدة أو على الأقل أولت عنايتها بتلك الناحية ولم توها للنواحي الأخرى. فكل ذلك إذن دوافع وأسباب وضع هذا التفسير، ولعمري فما أحوجنا إليه بعد ندرة مثيله وانقطاع نظيره.

ويتبع ذكر هذه الأسباب **بفصل** أسماه (فصل: في ذكر جمل لا بد من معرفتها قبل الشروع في تفسير القرآن). وبعده **فصل** آخر أسماه: (فصل : في ذكر أسامي القرآن ، وتسمية السور والآيات) . والفصلان كما يظهر أنهما من المقدمة أي أن المقدمة تشمل أسباب تأليف الكتاب والفصلين، والفصل الأول عبارة عن استعراض سريع لفكرة اعجاز القرآن وكماله وخلوه من الأخطاء والنقائص. ثم الحث على قراءته واستماعه من خلال الأحاديث الشريفة التي توصي بذلك. ثم بيان لشروط التفسير والمفسر وما يجوز في ذلك وما لا يجوز وأقسام التفسير وفهم الآيات، والأحاديث النبوية التي تذكر أن القرآن نزل على سبعة أحرف وتفسير العلماء لها ونقاشهم فيها، ثم شرح لموضوع القراءات السبع وأوجه اختلافاتها اللفظية والمعنوية. وحديث النبي ﷺ في أن كل آية لها ظهر وبطن، واختلاف المفسرين والعلماء في فهم هذا الحديث وما يراد منه. وتفصيل عن المحكم والمتشابه وما دار بين المفسرين من جدل

---

(٥) المصدر نفسه، المقدمة.

(٦) المصدر نفسه، المقدمة.

حولهما والحجج التي ساقها كل طرف في ذلك. وبيان أحوال الناسخ والمنسوخ وحكمهما وظروفهما وما هي الدوافع للنسخ وأقسام النسخ، فنسخ حكم دون لفظ، ونسخ لفظ دون حكم، ونسخ لفظ وحكم مع إيراد الأمثلة الموضحة لكل ذلك، ثم ذكر للقصة في القرآن وأسلوب سردها ولماذا تتكرر نفس القصة في أكثر من موضع، وبحث للتكرار بصورة عامة ولماذا يستعمل كتكرار جملة أو لفظة مع الاستشهاد بأبيات من الشعر تؤيد ما يذهب إليه.

أما في **الفصل الثاني** فيبحث كما هو في عنوان الفصل في أسماء القرآن وهي أربعة: القرآن والفرقان والكتاب والذكر، والآيات التي يستدل بها على ذلك مع الاشتقاق اللغوي لهذه الألفاظ. وهل القرآن مهموز أم لا وما هي الأدلة على هذا وما هي الأدلة على بطلان ذاك، وسبب تسميته بالفرقان وتسميته بالكتاب والذكر. ثم يعرج على السورة وسبب تسميتها بذلك وهل هي مهموزة أم لا. وما هو أرجح الآراء فيها، مع الاستشهاد بأبيات من الشعر العربي القديم فيها ما يؤيد القول. والآية، ولماذا سميت بالآية؟ ومعناها العلامة والرسالة والقصة مع الاستشهاد بالآيات والأحاديث والأبيات ـ الشعرية، ثم ينتهي من هذا الفصل، منهياً به مقدمة التفسير.

ثم يشرع الشيخ الطوسي في **تفسير القرآن** مبتدئاً بصورة **الفاتحة** فيأخذ في الكلام عن أسمائها وأسباب تسميتها بهذه الأسماء، فقد سماها النبي بـ (أم القرآن) و(فاتحة الكتاب) و(السبع المثاني). فسبب تسميتها بأم القرآن لتقدمها على سائر القرآن وتسمي العرب كل جامع أمراً أو متقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه أماً، وقيل مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها. وسميت فاتحة الكتاب لأنه تفتتح بكتابتها المصاحف، وبقراءتها في الصلاة. وسميت السبع لأنها سبع آيات ومثاني لأنها تثنى بها في كل صلاة فرضٍ ونفل.

وبعد هذه المقدمة الموجزة في أسماء سورة الفاتحة ينتقل إلى شرح معنى الجملة التي سار القراء على التلفظ بها قبل قراءة البسملة وهي (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) شرحاً لغوياً وأدبياً يتناول كل كلمة على حدة، فمعنى أعوذ والاستعاذة، ومعنى الشيطان لغةً واصطلاحاً ثم معنى الرجم والرجيم حتى يصل إلى البسملة وتفسيرها ولكنه قبل البدء بتفسير البسملة يذكر: «وسورة الحمد مكية في قول قتادة ومدنية في قول مجاهد. وليس فيها ناسخ ولا منسوخ» وهو في إيراد هذه الجملة سن سنة لنفسه قبل الشروع بتفسير كل سورة وهو أن يذكر عدد آيات السورة وكم منها مدنية وكم منها مكية. ولا يعود إلى تفسير البسملة في رأس كل سورة طبعاً، لأنه اكتفى بتفسيرها أولاً في فاتحة الكتاب.

وهو يتناول كل آية من آيات السورة ويفسرها من جميع أوجه التفسير فيأخذ فيها جانب المعنى. واللغة والاشتقاق، والإعراب، وجانب القراءة إذا كانت الآية موضع اختلاف القراء وذلك كما في آية: ﴿مالك يوم الدين﴾[٧]، فبعضهم قرأ مالك بالألف، وبعضهم قرأها ملك بغير ألف. وهكذا في الآيات الأخرى المختلف في قراءتها. وربما جزّأ الآية وتناول كل جزء منها على انفراد كما في آية: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[٨]، فأخذ (ذلك الكتاب) و(لا ريب فيه)، و(هدى للمتقين) كلاً على استقلال وفسر في الجزء ما ينبغي تفسيره.

وينتهز الشيخ الطوسي فرصة وصوله إلى أول سورة البقرة بعد البسملة أي إلى آية ﴿الم﴾[٩]، ليدخل في موضوع تفسير كل هذه الفواتح الذي تفتتح بها بعض السور، والآراء التي طرحت فيها والحجج التي ساقها المفسرون واللغويون مع دعم ذلك بالشواهد الشعرية والنثرية

---

(٧) سورة الفاتحة، ٣.
(٨) سورة البقرة، ٢.
(٩) سورة البقرة، ١.

لقدماء العرب وفصحائهم، وكيف آن هذه الحروف هي أسماء للقرآن في رأي قتادة ومجاهد وابن جريح، وكيف أنها فواتح يفتح بها القرآن ليعلم ابتداء السورة وانقضاء ما قبلها في رأي مجاهد أيضاً والبلخي، إلى آخر ما هناك من آراء قيلت فيها من أنها أسماء للسور فيقال سورة (ألم ذلك) وسورة (ألم الله) وسورة (ألم). وألحقت الكلمة الأولى بعد الحروف بالحروف لتميز السور المتشابهة الفواتح، أو أنها أوائل أسماء يعرف النبي ﷺ تمامها والغرض بها. أو أنها حروف من أسماء الله(١٠).

وهكذا ينتقل المفسر من آية إلى آية ومن سورة إلى سورة بعد أن أشبع ما عافه تفسيراً وتمحيصاً واستيعاباً لكل الوجوه والأبواب فمن الجانب اللغوي في الآية إلى جانبها البلاغي ومن إعرابها إلى معناها ومن سبب النزول إلى القراءة. وهو لا يولي أي جانب من هذه الجوانب أكثر مما يولي غيره من العناية فيطغى على التفسير. فهو ليس كتاباً في معاني القرآن ولا في لغة القرآن ولا في إعرابه ولا في أسباب نزوله ولا في أوجه قراءته وإنما هو كل هذه مجتمعة في كتاب يفسر القرآن من جميع نواحيه، بخلاف التفاسير المتعددة التي سبقته والتي أشار إليها الطوسي نفسه في المقدمة والتي ظهر فيها الانحياز إلى إحدى تلك الجوانب بغير إرادة المفسر وإنما بدافع من تخصصه وتمكنه وتغلب ذلك الجانب عليه.

والكتاب في أصله خال من العنوانات الفرعية الصغيرة التي نطالعها في طبعته الحديثة، وإنما ساق الطوسي تفسيره متصلاً مندمجاً دون أن يفصل مثلاً بين الحديث عن المعنى والحديث عن اللغة. ولكن الناشر اختار أن يضع له هذه العنوانات فوضع للفقرة التي يتحدث بها المفسر عن معاني الآية عنوان: (المعنى) مثلاً، والأسطر التي يتكلم بها عن إعراب الآية عنوان : (الإعراب).

ونكتفي بهذا القدر القليل من الإشارة إلى منهج الشيخ الطوسي في

---

(١٠) التبيان، جـ ١، (تفسير سورة البقرة).

تفسير القرآن تاركين التفصيل لمن يرجع هذا الكتاب النقد ويطلع فصوله ويتدبر عمقه ويرى ماله من غنى عن غيره وليس لغيره غنى عنه، ويكفيه تعريفا أنه للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي.

المصـــادر

(١) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، مكتبة الأمين، النجف.
(٢) خطط الشام.
(٣) الفوائد الرجالية، مهدي بحر العلوم، ط النجف.
(٤) القرآن الكريم.
(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي.
(٦) معجم البلدان: ياقوت الحموي.
(٧) المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، أحمد فؤاد عبد الباقي.
(٨) المنتظم، ابن الجوزي.
(٩) وفيات الأعيان، ابن خلكان.